

خالد بن حمزة مدني

يوجد في القرآن الكريم عدد كبير من الآيات الكونية سخرت لتكون أولاً برهاناً لإثبات وجود الخالق الواحد الأحد وإقامة الحجة على ذلك من خلال التفسير العلمي الذي لا ينكره منصف ولما يرفضه عقل رشيد، وثانياً هداية للعلماء في أبحاثهم تقودهم إلى النتائج الصحيحة، والحقيقة الكونية خدمة للبشرية جمعاء؛ تنور طريقهم، وتخرجهم من الظلمات إلى النور. وعملية الشروق والغروب التي يعيشها الإنسان يومياً فوق هذه الأرض - واحدة من هذه الحقائق الكونية حيث قال المولى تبارك وتعالى:

رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا (المشعراء (27)

فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ (المعارج (40)

(فَبِأَيِّ آيَاتِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ) الرحمن (15:14).

(حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَعْيُنُ الْقَائِلِ لِي لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ) المزخرف (37)

لا شك في أن ذكر المشرق والمغرب في صيغة المختلفة يعطي باعثاً للبحث، ورغبة في التفكير، وحافزاً للتعمق والتأمل، إنه مثل حي في بلاغة الأسلوب القرآني ودقة المعاني. وإذا تعمقنا في معاني هذه الآيات بدأ لنا بوضوح أنها تشير أولاً إلى عظمة الخالق، وأنه - سبحانه وتعالى - موجود حيث الشروق وحيث الغروب بربوبيته وسلطانه ونوره وهدايته، وثانياً إلى حقائق كونية متسلسلة لها وزنها العلمي الضخم وأهميتها الكبرى في معرفة نواميس هذا الكون المنظور، سخرت لهداية الإنسان في بحثه العلمي التجريبي والنظري كي لا يضل عن الحقيقة الكونية مصداقاً لقوله تعالى: (تَدْلِكُ بِبَيْنِ الْمَلَكِ لَكُمْ أَيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (آل عمران (103).

ففي سورة المشعراء جاء ذكر المشرق والمغرب في صيغة المفرد، وهذا ما نلاحظه في كل لحظة، فأينما كنا وحيثما وجدنا رأينا للشمس مشرقاً ومغرباً، وبما أن الأرض تدور حول نفسها وحول الشمس دون توقف فهناك مشارق ومغارب متتالية في الزمان والمكان. وهذا ما نفهمه من خلال الآية الكريمة التي جاءت في صيغة الجمع في سورة المعارج. لكن السؤال المطروح هو: ما هو الفهم الصحيح لهذا الذكر الذي جاء في صيغة المثني في سورة الرحمن؟

لقد فسر بعض المفسرين هذه الآية بمشريقي ومغربي الشمس في الشتاء والصيف، مهتدين في ذلك بما يقع من تغيير مستمر في زاوية الشروق والغروب الناتج عن دوران الأرض حول الشمس، وميل محور دورانها عن المحور الرأسي. قد يبدو هذا صحيحاً في المرة الأولى، لكن بسبب ميل المحور الذي يتزايد ويتناقص على مر السنة ليفرز لنا الفصول الأربعة - نرى كذلك على الأرض مشارق ومغارب متعددة بعدد أيام السنة، وليس مشرقين ومغربين اثنين فقط، ومن هنا نرى أن عدم التوافق الكلي الذي أفرزه هذا التفسير يدعونا إلى النظر من جديد والتفكير في الآية الكريمة لإيجاد الفهم الصحيح، فالقرآن يفسر بالقرآن، ثم بالسنة الصحيحة، وبآثار العلم المكشوف.

التفسير العلمي الحالي:

رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا

(المشعراء (27) لقد جاء ذكر الشروق والغروب في هذه السورة الكريمة في صيغة المفرد، وهذه إشارة إلى حالة خاصة ثابتة في مكان ما

المحالة الأخرى، فهي التي سيرها الإنسان قبل قيام الساعة - اقرأ قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوُنَّ سَحَابًا مِّنْ دُحَانٍ يَمُزُّ عَذَابًا مِّنْ دُحَانٍ يَمُزُّ عَذَابًا مِّنْ دُحَانٍ يَمُزُّ عَذَابًا مِّنْ دُحَانٍ) (المحج (2,1) - أي عند طي السماء وانكماش الكون المنتظر Crunch Big حيث ستطلع الشمس من مغرب الأرض مصداقاً لقول الرسول -

عليه الصلاة والسلام: (لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها)، نحن المسلمين ندرك من خلال ما جاء في كثير من الآيات الكونية والسنة الصحيحة حقيقة الكون في المستقبل، ونستطيع أن نزود العلم البشري بمثل هذه المعلومات الهامة الكونية لاستغلالها والتعرف عنها مصداقاً لقوله تعالى: (وَقَالَ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَاتَّعَفَوْنَهَا) (النمل (93).

تصور طلوع الشمس من مغرب الأرض

بعد استقرار الشمس المقدر في المكان والزمان، كما جاء في قوله - عز وجل: (وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ) (يس (35). يمكن تصور طلوعها من مغرب الأرض - دون أن ندخل في التعريف عن الكيفية - بتغيير اتجاه دوران الأرض كأن يكون معاكساً لدوران كارجنجتون C.R. arrington

وهكذا سيكون في المجموع - خلال عملية توسع الكون وانكماشه - اتجاهان مختلفان لدوران الأرض: الأول هو الذي نعيشه ونراه حيث تدور الأرض من غربها إلى شرقها لتطلع الشمس من مشرق الأرض، والثاني هو الذي يراه الإنسان قبل قيام الساعة حيث ستطلع الشمس من مغرب الأرض. إنهما عمليتان للشروق والغروب لا تتمان في وقت واحد، ولهذا جاء قوله تعالى: (رَبِّ الْمَشْرِقَيْنِ وَالْمَغْرِبَيْنِ) (والذي يدل على أن الخالق واحد هو الإله ربوبيته وسلطانه وتوجيهه خلال عملية التوسع والانكماش، ليبقى التعبير واحداً، فحيثما وجد المشروق والغروب هناك قدرة الله ودقة صنع.

بُعد المشرقين:

إن هاتين الحالتين للشروق والغروب مختلفتان تماماً ويفصل بينهما بعد ثابت في الزمان والمكان: فمقدار الزمان لا يعلمه إلا الله - سبحانه - هو وحده عنده علم الساعة لا يجليها لأحد، أما المكان فيمكن أن نقدر بعده بنصف محيط الكرة الأرضية أي حوالي 20 ألف كيلومتر وهو بعد ثابت، مهتدين في ذلك بقوله تبارك وتعالى: (حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَعْيُنُ الْقَوْمِ بِاللَّيْلِ بَيِّنَاتٍ بِأَنَّهُمْ فِي ضَلٰلٍ بَٰرِعَةٍ) (الزخرف (37). نحن نعرف أن الإنسان كائن مرتبط بالأرض، ونفس المارتباط سيكون بقريته بدون شك. وبما أن القرين ظل صاحبه يود هذا الأخير لو كان بينهما أثناء حياتهما الدنيا أقصى مسافة ثابتة موجودة على وجه الأرض، أي مسافة بُعد المشرقين التي تعادل المسافة بين المشرق والمغرب الحالي والتي تقدر بنصف محيط الكرة الأرضية في منطقتها الاستوائية. ومن الملاحظ أن هذا البعد ثابت في المكان والزمان بعكس البعد الذي يكون بين مشرقى فصل الشتاء وفصل الصيف الناتج عن التغيرات المتعددة المتتالية التي تسببها هندسة مدار الأرض حول نفسها وحول الشمس. كما نعرف كذلك أنه ما من آية في القرآن الكريم تحدثت عن أمر من أمور الدنيا أو الآخرة إلا وقد استوعبت وصف هذا الأمر بأحسن عبارة وأدقها. وبما أن الأمر الذي تعرضت له الآيات المسالفة الذكر يدخل في نطاق البحث العلمي فلا نشك أن دقة العبارة القرآنية سوف تستوعب ما بلغه العلم البشري من حقائق كونية. وكيف لا والذي أنزل هذا القرآن هو الخالق - عز وجل - الخبير العليم بالسر وما يخفى في هذا الكون. لقد فسرنا الآية الكريمة: (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمُ تُكَذِّبُونَ) (المرحمن (14,15) بالقرآن الكريم مهتدين في ذلك بالآية الكريمة: (حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَعْيُنُ الْقَوْمِ بِاللَّيْلِ بَيِّنَاتٍ بِأَنَّهُمْ فِي ضَلٰلٍ بَٰرِعَةٍ) (الزخرف (37). وبالحديث النبوي الشريف: (لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها).

ومن خلال ما أتاح لنا التفسير العلمي - نرى أن هناك مشرقين مختلفين في المكان والزمان: الأول هو الذي نراه الآن الناتج عن عملية الضيق أو الانضجار العظيم وبناء الكون وتوسعه حيث تدور الأرض من غربها إلى شرقها لتطلع الشمس من مشرق الأرض، والآخر هو الذي سيراه الإنسان قبل قيام الساعة أي عند بداية انكماش الكون وعملية طي السماء حيث ستطلع الشمس من مغرب الأرض. والله العليم، وإنما الموفق من وفقه الله.